رجال المال والاعمال

للاستاذ عباس محمود العقاد
في جريدة الجهاد

كتب السير والتراجم من أنفع الكتب وأمتعها وأحقها بالتداول والدراسة ، وعناية «المقتطف» بهذا الباب من التأليف قديمة ملحوظة في كتاب «سر النجاح» وكتاب «الروّاد» وفي هذا الكتاب الجديد الذي جعله المقتطف هدية العام الى مشتركيه

ومن اسباب العناية بتأليف هذا الكتاب ان التراجم العربية القديمة مقصورة كما يقول محرر المقتطف الفاضل على الفقهاء والشعراء والادباء والامراء والنحاة . وهو يسأل : «اهؤلاء قوام الامة لا بغيرهم وهم عنوان مجدها وغيرهم بهل همل ؟ ان قال بذلك أبناء العصر الذي كان فيهِ ابن خلكان فهل يقول بهِ أبناء عصرنا هذا ونحن نرى أرباب الزراعة والصناعة والتجارة ملكوا الخافقين ؟ نرى الملوك يقتنون المزارع والمعامل ويشاركون الشركات التجارية في اعمالها ؟ نرى ميازيب الثروة تنهال على ابناء الصناع والتجار . نرى قصورهم وبيوتهم ومتاحفهم وسفائنهم غاصة بكل علق فاخر ثمين ، ونحن نسل الامراء والفقهاء والشعراء والادباء عاكفون على التفاخر بالعظم الرميم وتفسير الآيات والاحاديث ونظم المدائح والمراثي ومن حين يشب اولادنا لا يرون امامهم مثالاً يقتفونهُ ويحيكون على منواله الاّ ما يقرأونهُ في كتب السير عن فلان الفقيه وفلان الشاعر وفلان المحدّث . . .» . والاستاذ الفاضل محق في ملاحظتهِ مصيب في توجيه العناية الى تراجم رجال الاعمال لانهم في كل عصر — لا في العصر الحاضر وحده — عنصر قوي في حياة الامم ومعرض مزدحم بصنوف الدراسة النفسية والاجتماعية ، ولهم من الحق في التاريخ مثل ما يحق لجميع النابهين من رجال الادب والحرب والسياسة

وقد احسن الاستاذ اختيار الامثلة من عظماء الامم الغربية المختلفة فجمع في كتابه سبعاً وعشرين ترجمة بينها تراجم للانكليز والالمان والامريكيين والروس وغيرهم ، وكلها تقرأ كما تقرأ القصص وتفيد كما تفيد كتب العلوم ، وحبذا لو اضيف الى الكتاب في طبعاته المقبلة طرف من تراجم الشرقيين الذين برزوا في ميدان العمل والمال في البيئات الشرقية المتفرنجة او المحافظة على عاداتنا الموروثة ، فهذه التراجم أنفع لنا واصلح لهدايتنا لانها من جهة اقرب الينا ومن جهة ادل على القدرة والبراعة لما فيها من ابتكار شخصي قد لا يشاهد في الامم التي انتظمت فيها أساليب التجارة والصناعة حتى اصبحت كالقواعد الحربية في عمومها واطرادها ، ولان تراجم الشرقيين من جهة ثالثة نمط مختلف في الموضوع . فهو تكملة صالحة لانماط التراجم الغربية المبثوثة في الكتاب

ومن راجع هذه التراجم السبع والعشرين خرج منها بحقيقة واحدة لا اختلاف فيها مع اختلاف البلدان والازمان والمقاصد ، وهي ان النجاح في الحياة العملية لا يتم بغير « قدرة وحيلة » او بغير مزيج غريب من صفتين متناقضتين في الظاهر متقاربتين في ملكات الناجحين من رجال المال والعمل، ونعني بهاتين الصفتين القدرة على موافقة البيئة والقدرة على مخالفتها في وقت واحد، واوضح من هذا ان نسميها القدرة على المسايرة والمجاراة والقدرة على التفرد والابتكار

فكل رجل من رجال العمل والمال خلا من هذا المزيج الغريب لا يفلح ولا يبلغ القمة في سباق الحياة العنيف . والفارق بين عظماء الفكر والروح وعظماء العمل والمال في كفاءة النجاح واستحقاق الغلب ان موافقة البيئة شرط لا بد منهُ في حياة الاخيرين يفوتهم فيفشلون وان غنوا بصفات الكمال الراجحة ، ويتيسر لهم فينجحون وان كان حظهم قليلاً من الصفات الانسانية العالية ومناقب الاريحية والايثار . أما عظماء الفكر والروح فلا بد لهم من السجايا التي تراد لصلاح الانسانية في جميع العصور ولا تراد لصلاح عصر واحد او إنسان واحد

ومن هنا تباينت الطريق وتفرقت المطالب فلو ان الناجحين من عظماء العمل والمال طلبوا النجاح بوسائلهم ومزاياهم في معارض الفكر والروح لفشلوا ولم تغن عنهم تلك الوسائل والمزايا ، ولا مناص من التنبيه الى ذلك لكي لا يقع في بعض الاوهام ان العمليين جمعوا أسباب النجاح كلها وفازوا في ميدانهم لانهم اقدر من الفكريين والروحيين على الاطلاق ، إذ الحقيقة ان المطالب تختلف فتختلف الوسائل ، ولو استعدَّ العمليون بعدتهم وحدها في صراع العظمة الفكرية أو الروحية لأخفقوا كما اسلفنا أشد اخفاق . كذلك لا مناص من التنبيه الى استدراك آخر على الكتاب تشترك فيه كتب كثيرة من هذا القبيل

فالذي يقرأ هذه التراجم لا يرى أمامه من وسائل النجاح الاَّ كل وسيلة شريفة تقرها الآداب والقوانين ، ولا يحسب ان احداً من رجال العمل والمال عمد الى وسيلة تشينه او يستحي من اعلانها عن نفسه ، وليست هذه هي الحقيقة التي يعرفها كل من مارس الحياة ونفذ الى خفايا الصراع العملي في الحضارة الحديثة وفي الحضارات التاريخية المذكورة

فقد يطلع القارىء على ترجمة رجل من مؤسسي المصانع غلب المزاحمين له في صناعته واضطرهم آخر الامر الى ادماج اعمالهم في عمله ، فيخيل اليه ان هذه الصفقات تتم أبداً بوسائل الجد والصراحة والمزاحمة الشريفة، وينسى ان بعض هذه الصفقات لا يتمُّ الاَّ بحيل ودسائس تبلغ حد الخيانة في بعض الاحايين

فمدير المصنع او الشركة الذي يغلب مزاحميه كثيراً ما يلجأ الى اذاعة الاشاعات الكاذبة عن أسهم المصانع والشركات الاخرى ، أو يعمد الى شراء الضمائر ورشوة المطلعين على اسرار البيع والشراء في مكاتب مزاحميه ليلحق الخسائر بأسهمهم ومشروعاتهم ويضاربهم وهو عالم

منهم بالعيوب والمقاتل، ومن الذين جاءت لهم سيرة في كتاب «المقتطف» من لجأ الى هذه الاساليب واستعان بها على هزيمة المزاحمين فأصاب النجاح

ان تقرير هذه الوقائع واجب على المؤلف لانها حقيقة تعرف وتنفع ، ولانها من الجانب الآخر تكشف عن عيوب الحضارة او عيوب المجتمع في ناحية من نواحيه فتعين على الاصلاح وتدعو الى اجتناب الاضرار . وما دام القصد من سرد التراجم العبرة والقدوة فالسكوت عن ذكر الحقائق كلها يحجب العبر ، ولا يتيح للمقتدي ان يعرف سبيله على هداها ، ولا يعرض لنا الصورة الكاملة لكل ما يجري في الحياة

في كتاب هـ . ج ولز « العمل والثروة والسعادة بين بني الانسان » اجمال لترجمة باسيل زخاروف والفرد كروب المشهورين في عالم المال والصناعة توخى فيه الالمام والايماء دون الافصاح والافاضة فأرانا كيف يستحل الرجل ان يبيع السلاح الواحد لابناء وطنه وخصوم وطنه وكيف تجري الدماء وتشتعل الحروب في سبيل الارباح والصفقات . وقال عن باسيل زخاروف: « ولا ريب ان هذا الرجل قضى شطراً كبيراً من حياته في اعداد المجازر البشرية وتزويدها ، ولكن من الظلم والخطل ان يلام على ذلك ، إذ ليس أسهل ولا أقرب من سخط المسالمين العاطفين عليه ، ولكننا جميعاً منغمسون في تلك الدوامة التي دفعت به الى الثروة وعلينا نصيب من التبعة التي تقع عليه ، فان دواعي ضرورية لاطاقة له بمنعها هي التي عبّدت له سبيل حياته، وكل ما في الامر انه كان من التواضع بحيث أبى ان ينصب نفسه حكماً على أساليب الدنيا المحيطة به وقنع بأن يلاحظها أميناً في ملاحظتها ذكيًّا في فهمها ، وواضح انه كان يسوّغ أعماله أبداً بما تؤدي اليه من كسب المال وهو — اي كسب المال — مما ينبغي ان يكون دليلاً على الخدمة الاجتماعية ، فان لم تجر الامور على هذا الاساس فالخطأ اولاً انما هو خطأ النظام السياسي والعملي ثم يأتي بعد ذلك خطأ الافراد الذين يجمعون المال

«ان تدبير القتل كان في قرارة أساليبنا الفكرية، فهذا الاغريقي الاناضولي الغارق في ثروته المزدان بأرفع الالقاب المشرفة التي تستطيع فرنسا وبريطانيا العظمى واكسفورد ان تضفيها عليه ، واللاهي في أخريات ايامه بقصر فاخر يديره للمقامرة ، اذا نظرت اليه ووراءه ظهارة من الملايين التي لا تحصى مشوّهين معذّبين مجروحين مجندلين ساغ لك ان تتخذه مثالاً صحيحاً لموروثاتنا السياسية ولم يكن ذلك على وجه من الوجوه ادانة له شخصية ، فان الملايين من ابناء عصره ليودّون ان يصنعوا صنيعه لو فكروا فيه وقدروا عليه، اذ ليس في أشخاصهم مايحول بينهم وبين هذا الصنيع ، وانما الوزر على المؤثرات التعليمية والاحوال السياسية والاقتصادية والمالية التي حرّضت اولئك الاشخاص » .وما يقال عن زخاروف قد يقال عن كثيرين غيره ، ويجب ان يقال لتنجلي الحقيقة وتتم العبرة وتحسن القدوة